كراهية الإسلام تحديات ومواجهات

د / محمد بشارى(*)

بين تأمل الآية الكريمة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، والحديث عن كراهية الإسلام فى العصر الراهن، يتبين لنا بأن هناك أمور غير طبيعية فى هذا العالم؛ لأنه من ناحية منطقية بالدرجة الأولى، وليست فقهية أو شرعية، لا يعقل أن يكون دين أرسل نبيه الكريم ﷺ رحمة للعالمين، وبين تصاعد أصوات غربية تدعو للكراهية أو تحض على قمع المسلمين والتضييق عليهم.

وبصفتى مسلمًا مقيمًا فى الغرب، وبصفتكم متتبعون لأوضاع المسلمين فى الدول الغربية عبر القنوات الإعلامية، فلا شك أنكم تطلعون بين الفينة والأخرى على أخبار تعكس المشاكل والتحديات التى تعيشها الأقليات الإسلامية فى الدول الغربية، وأن العديد من من هذه المشاكل ترتبط بعنوان هذه المداخلة، أى: كراهية الإسلام والمسلمين.

نماذج من الكراهية:

لا شك كذلك أنكم تتبعتم أصداء الرسوم الكاريكاتورية السيئة التى صدرت عن صحيفة دانماركية، وحتى تظهر بعض تجليات خطورة الموجة، فإننا نكتفى فى هذه المداخلة بالاستشهاد ببيان صادر على هامش ردود المسلمين فى العالم على الرسوم.

وتكمن أهمية البيان أنه يتجاوز السقف المعرفى لأيديولوجية الجريدة الدانماركية، بل يمتد إلى سقف أعلى، حيث أننا نجد مفكرين وباحثين ومسلمين وأجانب يجمع بينهم تبنى خطاب الكراهية تجاه المسلمين بالنسبة للموقعين الغربيين، والتنكر للهوية الإسلامية بالنسبة للموقعين المسلمين.

جاء هذا البيان تحت عنوان "لنواجه معًا الشمولية الجديدة"، وقد تجرأ الموقعون عليه بأن تحدثوا عن ضرورة ما وصفوه بسقوط عالم اليوم، تحت تهديد نظام شمولى

(*) رئيس الفيدرالية العامة لمسلمى فرنسا، وأمين عام المؤتمر الإسلامى الأوروبى.

جديد هو الإسلام، وذلك بعد التغلب على الفاشية والنازية والستالينية، مطلبين بمقاومة الشمولية الدينية وترقية الحرية والمساواة فى الحظوظ وكذا اللائكية لجميع الناس، على اعتبار أن الأحداث التى تلت نشر أوروبا للرسوم الكاريكاتورية أظهرت ضرورة المقاومة من أجل هذه القيم العالمية، وأن هذه المعركة لا يمكن الظفر بها عن طريق الأسلحة، ولكن علينا أن نسك طريق الأيديولوجيا.

ويضيف البيان الخطير أنه "مثل جميع الأنظمة الشمولية، يتغذى الإسلام بالخوف والغضب، ويرهن دعاة الكراهية على العواطف من أجل إنشاء كتائب بغرض خلق عالم قائم على خنق الحريات وعدم المساواة، والإسلام يعتبر أيديولوجية رجعية أينما حلّت، تقل المساواة والحرية واللائكية، ونحن نرفض التخلى عن روحنا النقدية؛ خوفًا من اتهامنا ب"رهاب الإسلام/ إسلاموفوبيا"، وهو مفهوم مؤسف يخلط بين نقد الإسلام وبين التعييب على أتباعه".

وقد وقع على البيان الأسماء التالى: يعان حرزى على (من أصل صومالى)، عضو البرلمان الهولندى، وكاتبة فيلم "الخضوع" الذى أخرجه نيو فان غوخ، وشهلة شفيق (كاتبة إيرانية مقيمة بفرنسا)، من مؤلفاتها كتاب "الرجل الإسلامى الجديد"، وكارولين فوريست (قاصة ومسئولة النشر لمجلة بروشوا المهتمة بالدفاع عن الحريات وضد الحركات الإسلامية، وبرنارد هنرى ليفى (مفكر فرنسى)، وإرشاد مانجى (كاتبة إيرانية صاحبة كتاب "مسلمة ولكن حرّة"، ومهدى مُظفّرى (أستاذ إيرانى مغترب بالدانمارك، ومريم نمازى (كاتبة ومنتجة فى التلفزة البريطانية الدولية ومديرة العلاقات الدولية بحزب العمال الاشتراكى فى إيران)، وتسليمة نسرين (كاتبة من البنغلاديش)، وسلمان رشدى (صاحب آيات شيطانية)، وأنطوان سفير (كاتب لبنانى ذو جنسية فرنسية)، وفيليب فال (مدير نشر أسبوعية "شارلى إيبدو" التى أعادت نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبى ﷺ، وبن ورّاق (كاتب وباحث بالمعهد الأمريكى، له مؤلفات منها: "أصول القرآن"، و"لماذا لست مسلمًا").

إن اعتبار الموقعين على البيان فهوم "إسلاموفوبيا"، وهى كلمة يقصد بها "الرهاب الإسلامى" كمصطلح لمعنيى الخوف من الإسلام، بأنه يخلط بين نقد الإسلام

وبين نقد أتباعه، يبرز أيضًا ذهنية الفكر المحرض على الكراهية والعنف والقمع، ومن المؤكد أن الفعل أو الممارسة التى تتأسس على العنف والقمع تؤسس فى المقابل لعنف مضاد وعنف مضاد، لأن هذه هى سنة الحياة.

ونتوقف عند مثال ثانى، ويتعلق بمؤشر الإسـلاموفوبيا فى القارة الأوروبية، وقبل أن نتـوقف عند تأكـيدات آخـر تقـرير أوروبى يرصد الظـاهرة، والذى أصدره المركـز الأوروبى لمراقبـة التمييـز ومعـاداة الأجانب، لابد لنا من دحض تحـقير الموقـعين على البيـان من وزن مفـردة الإسلامـوفوبيـا، وذلك بناء على اعتـرافات أوروبية، ولـيست إسلامـية أو عربيـة؛ اعتمـادًا على ما أكدنا عليـه فى كتاب لنـا صدر منذ سنوات وهو كتـاب "صورة الإسـلام فى الإعلام الغـربى"[1]، حيث أكـدنا على أن المفردة دخلت قاموس السياسـة الأوروبية مباشرة بعد صدور بحث هام عبـارة عن دراسة استطلاعية قامت بهـا مؤسسـة "رنيمـيد ترست"[2]، وقد اعـتبرت الدراسة أول عـمل استطلاعى ميـدانى تقوم به مؤسسـة مستـقلة تبحث أوضاع المسلمـين فى بريطانيا، واستـعرضت الدراسـة وجهـات نظر مخـتلفة وتضـعهـا فى سيـاق النقـاش الحاصل بين المسلمـين وغيرهم، وتستـنتج فى النهاية مجموع وخلاصـات اجتماعية وقانونيـة تساعد فى بناء جسور التـفاهم بين المجموعات الدينيـة فى بريطانيا، وتضمنت لجنة التحـقيق فى كلا من مطران لندن ريتشـارد تشارتز والحاخام جولـيا نوبيرغر والبروفـيسور أكبـر أحمد أستاذ علم الإنسان فى جامعة كامبريدج، والمفكر الإسلامى المرحوم زكى بدوى، وهو العمـيد السـابق للجامـعة الإسلامـية بلندن، الدكـتور ريتـشارد ستـون رئيس المجلس اليهودى للمساواة العرقية، وإيان هارغريفيس رئيس تحرير صحيفة نيو ستيتمان.

وقد أكدت الدراسة[3] على أنه فى العشرين سنة الماضية، صـارت الإسلاموفوبيا أكثـر وضوحًـا وتطرفًا وخطورة فى بريـطانيا، وأن إثارة الدخـول من الإسلام أحـيانًا

(١) صورة الإسلام في الإعلام الغربي، محمد بشاري، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٤م.

(2) Islamophobia its features and dangers. Commission on British Muslims and Islamophobia. The Runnymede trust. february 1997.

(٢) نشرت جريدة الإندبندنت البريطانية ملخصًا لنتائجها في عددها الصادر يوم ٢١ فبراير ١٩٩٧م.

تكون صارخة، وكثيراً ما تكون مبطنة وخبيثة، وهى جزء من الحياة اليومية لبريطانيا الحديثة، مشبهة إياها بحالة العداء للسامية التى كانت سائدة فى بداية القرن الحالى، وأضاف الدراسة أن انتشار مشاعر العداء للمسلمين من شأنه أن يسكت الأصوات المعتدلة فى أوساط الجاليات الإسلامية، ويعزز التطرف والعداء للثقافة الغربية بين أبنائها.

بعد مرور حوالى عشر سنوات على صدور تقرير مؤسسة رنيميد ترست، جاء المركز الأوروبى لمراقبة التمييز ومعاداة الأجانب[١]، ليؤكد ويزكى ما جاء فى التقرير الأول، حيث توصت نتائج دراسته الجيدة، وتأتى خمس نوات بعد تاريخ ١١ أيلول سبتمبر ٢٠٠١، أن مسلمى أوروبا يتعرضون لتمييز طائفى مستوطن، فى التعليم والإسكان والوظائف، بخلاف تعرضهم للاعتداءات، وهو ما يمكن أن يعزلهم عن التيار الأساسى للبلاد، وإن يكن المسلمون أقروا أيضًا بأن عليهم بذل مزيد من الجهد للتواصل مع المجتمع. وجاء التقرير تحت عنوان "المسلمون فى الاتحاد الأوروبى" فى ١١٥ صفحة، ويتضمن لقاءآت مع شبان مسلمين يصفون تجربتهم فى التهميش داخل مجتمعاتهم حتى لو كانوا ولدوا فى أوطانهم.

وقالت هولندية مسلمة: إن السؤال الذى سألته كثيراً هو: متى ستعودين، وأقول: ولدت فى روتردام فإلى أين أذهب؟ إنه حقًا سؤال مؤلم ويجعلك تشعر بأنك أجنبى، عليك أن تقبل بأنك أجنبى عند نقطة ما.[٢]

جاء التقرير فى ثلاثة أقسام هى: "البيئة الاجتماعية، وتجليات الخوف من

---

(١) جاء التقرير تحت العنوان التالي:

Muslims in the European Union. Discrimination and Islamophobia. EUMC2006.

المسلمون في الاتحاد الأوروبي: التمييز والخوف من الإسلام "تقرير عن وضع المسلمين في الاتحاد الأوروبي" أصدره المركز الأوروبي لمراقبة العنصرية وكراهية الأجانب، الذي تأسس في عام ١٩٩٨م بقرار من مجلس الاتحاد الأوروبي الوزاري، وستتوسع صلاحياته في ٢٠٠٧ ليصبح "وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية".

(٢) يعيش في الاتحاد الأوروبي ١٥ مليون مسلم، أي ما نسبته ٣,٥٪ من سكان الدول الأعضاء في الاتحاد ويشكلون المرتبة الثانية بين الطوائف الدينية، ومن بينهم ستة ملايين في فرنسا، وثلاثة ملايين في ألمانيا، و١,٦ مليون في بريطانيا، ومليون في إسبانيا، ومليون في هولندا.

الإسلام، وتشجيع الدمج، مقاومة الخوف من الإسلام"، وينتهى باستنتاجات وآراء بخصوص إطار عام لخطوات ضد العنصرية والخوف من الأجانب ومعاداة السامية، والخوف من الإسلام وغيرها من أنواع التعصب، وبالإضافة إلى ذلك يوجد ملحق عن "الشبكة الأوروبية للعنصرية والخوف من الأجانب" المشكلة ٢٥ بؤرة وطنية منوط بها مهمة تزويد المركز بالمعلومات ذات العلاقة، وقد توصل المركز فى تقصيه إلى مجموعة من الحقائق بخصوص وضع المسلمين فى الاتحاد الأوروبى، تؤثر سلبًا فى وضعهم، أهمها:

* المسلمون عادة ما يكونون ضحايا النمطية السلبية التى يقوّيها اختيار الإعلام نشر أخبار سيئة عنهم، وهم أيضًا عرضة لأشكال الأحكام المسبقة والكراهية المختلفة، بدءًا من التهديدات اللفظية، وانتهاء بالاعتداءات الجسدية.

* المسلمون -والشبيبة منهم على نحو خاص- يلقون فرصًا جد محدودة للتطور الاجتماعى، مما يؤدى إلى الإقصاء والتمييز وفقدان الأمل والانسلاخ.

* وضحت الإحصاءات أن المسلمين ممثلون على نحو سلبى ى مناطق السكن الفقيرة، بينما يقع تحصيلهم المدرسى دون المعدل، ومقدار البطالة بينهم أعلى من المعدل، والمسلمون عادة ما يستخدمون فى الوظائف التى تتطلب قدرات دنيا، وهم مجموعة ممثلون على نحو سلبى فى القطاعات ذات الدخل المتدنى، ولاحظ التقرير غياب أية أبحاث وطنية عن الخوف من الإسلام "الإسلاموفوبيا" والتمييز، مما دفعه إلى إجراء تقصٍّ خاص به، فتبين أن المسلمين أكثر عرضة للتمييز بسبب دينهم فى دول محددة، مثل إسبانيا وإيطاليا وهولندا والبرتغال، كما رآهم يعانون فى دول أخرى مثل النمسا وبلجيكا وألمانيا واليونان وفرنسا وأيرلندا الأمر ذاته، ولكن ليس بسبب الدين وحده.(١)

بالنسبة لتجليات الخوف من الإسلام، فقد لاحظ التقرير غياب تعريف جامع

(١) نشرت قراءات في التقرير المهم، ومنها قراءة أنجزنها زياد مني علي موقع إسلام أون لاين بتاريخ ٣٠/ ١/ ٢٠٠٧م.

للخوف من الإسلام، ما يعنى غياب تشريعات قانونية لمحاربته، كما سجل أنه منذ تاريخ ١١/ ٩/ ٢٠٠١ أضحت مجموعات محددة من البشر -ومنهم العرب والمسلمون- أكثر عرضة للعنصرية والتمييز فى مجالات حياتية كثيرة، بما فى ذلك التعليم والتوظيف والإسكان والحصول على الخدمات، والتمتع بالمواد الاستهلاكية والأمكنة العامة وحرية التحرك[1]، وشدد التقرير على ضرورة تمييز مواقف ضد المسلمين نابعة من تصورات نمطية، والنقد الذى يرى أن مسلمات إسلامية تهدد حقوقًا مدنية رئيسية قد تصطدم ببع التصورات عن الواجبات الدينية للأفراد أو الجماعات، وعن تجليات ظاهرة الإسلاموفوبيا، فقد تم التوقف عند الخلاصات التالية:

* تبقى وحدة الإسلام متراصة جامدة وغير قابلة للتغيير.
* يبقى الإسلام منفصل ولا يشارك فى قيم حضارات أخرى، ولا يتأثر بها ولا يؤثر فيها.
* يبقى الإسلام أدنى من الغرب، بربرىّ وغير منطقىّ وبدائىّ وقائم على التمييز على أساس الجنس.
* الإسلام عنيف وعدوانى وتهديدى وداعم للإرهاب ومتورط فى صراع الحضارات.
* الإسلام فكر سياسى يستخدم لتحصيل ميزات سياسية أو عسكرية.
* العداوة للإسلام تسوغ الممارسات العنصرية تجاه المسلمين واستثناءهم من المجتمع العام.

أسباب الكراهية:

لتحديد أهم أسباب الكراهية، علينا الاعتراف أولاً بأنها متداخلة ما بين عوامل خارجية، وسوف نتوقف عند اعترافات منها كما جاءت فى التقرير الأول الخاص بظاهرة الإسلاموفوبيا، وبين عوامل داخلية خاصة بالمسلمين.

---

(١) تفاقمت المشاعر المعادية للعرب والمسلمين في الولايات المتحدة والعديد من الدول الغربية في أعقاب الهجمات علي مبني وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" في واشنطن، ومركز التجارة العالمي في نيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، حيث تعرضت مساجد ومراكز إسلامية إلي اعتداءات وإطلاق نار، وهوجم المسلمون وتعرضوا لتهديدات بالقتل. وقد أسهم عدد من وسائل الإعلام الأمريكية والغربية في توليد مشاعر الكراهية هذه بسبب إصرارها علي اتهام العرب والمسلمين بتنفيذ هذه الهجمات.

إنه لا بد لنا من التنبيه إلى مسئولية المسلمين فى الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين فى الذهنية الغربية، وهناك مجموعة من الأمثلة المعاصرة التى نتحمل فيها هذه المسئولية، ومنها: التفجيرات الإرهابية التى تورطت فيها عناصر من المسلمين، كالتفجيرات التى ضربت بعض الدول الغربية، مثل: الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وإسبانيا، وإذا كانت بعض الأصوات الإسلامية قد تنتقد الرواية الرسمية للتفجيرات التى ضربت الولايات لمتحدة الأمريكية، فإن هذه القراءات لا يجب أن تحجب عنها تفجيرات أخرى تأكد فيها أن المتسببين فيها هم مسلمون، وإن مثل هذه التفجيرات وغيرها من الأحداث التى تسهم بشكل مباشر فى تشويه صورة المسلمين من جهة، وتساهم من جهة ثانية فى تغذية ذهنية الكراهية تجاه الإسلام والمسلمين.

إن توقفنا عند هذه العوامل يحتم علينا ممارسة نقدًا ذاتيًا، قبل أن نفتح الحوار مع الآخر، وإن محاورة الغرب فى ندوات الحوار، انطلاقًا من اتفاق مبدئى بيننا وبينهم على ممارسة النقد الذاتى تعتبر أهم أسباب نجاح مؤتمرات الحوار.

بعد أن توقفنا عند العوامل الذاتية الخاصة بالمسلمين، نأتى إلى العوامل الخارجية، ويمكن أن نتذكر منها نتائج الحروب الصليبية على سبيل المثال، ومنها أيضًا تأثير بعض وسائل الإعلام، وخاصة الإعلام الموالى لأيديولوجيات عنصرية.

يتحدث باحث غربى عن ثلاثة أسباب تقف وراء الصور السلبية للإسلام فى وسائل الإعلام الغربية: التجربة فى ظل الاستعمار، حين أبدت الشعوب لمسلمة مقاومة أشد فى مواجهة الاستعمار الغربى بالمقارنة مع الكثير من الشعوب الأخرى التى استعمرت، والنزاع بين الفلسطينيين وإسرائيل، وذلك بسبب تعبير العالم الإسلامى عن تضامنه مع الفلسطينيين، ولديه مخاوف فى شأن مصير القدس، وأضاف الباحث أن الانطباع ترسيخ فى أذهان كثيرة فى الغرب بأن هناك شيئًا ما فى الإسلام مناهضًا لليهود أو مناهضًا للسامية على نحو مرضى.[1]

أما الباحثة الفرنسية جوسلين سيزارى، فقد أشارت على الخصوص فى كتابها "من يخاف الإسلام (FAUT IL AVIOR PEUR DO L'ISLAM?) إلى التنافر

(١) جريدة الحياة اللندنية ١٤/ ١١/ ١٩٩٩.

والتنافس التاريخيان بين الإسلام والمسيحية، فإذا كانت القيم التى جاء به الإسلام تماثل القيم التى جاءت بها الأديان التوحيدية الأخرى، حسب سيزارى، فملا بالرغم من ذلك يبدو الإسلام وكأنه فى صورة الدين المتعارض تعارضًا جذريًا مع القيم اليهودية المسيحيحةة والمحارب لها.

هذا يدعونا إذن إلى البحث عن أسباب هذه الرؤية فى تاريخ المواجهات التى قامت بين أوروبا والعالم الإسلامى، والتى كان الفضاء المتوسطى منذ العصور الأولى هو إطارها الرئيسى، إن ما نعتقد أننا نعرفه عن الإسلام، تضيف سيزارى، هو فى قسم عظيم منه، نتاج رؤية أوروبية مركزية، جادت نتيجة قرون من التعارض السياسى والدينى، ولذلك صار واقع المسلمين المتحول والمفارق، سواء ما تعلق بواقع سلوكهم الأكثر خصوصية، أو الجوانب الأكثر جماعية من سلوكياتهم، وقد اختفت تحت ثقل التمثلات المفككة على مر القرون، وترى سيزارى أن البعد الدينى سوف يبرز فى أسبانيا المسلمة، وهناك نشأت رؤية الإسلام تجعله نقيضًا للمسيحية، وبذلك حطم ذلك الأساس الذى تشترك فيه الأديان الثلاثة تحطيمًا متعمدًا، لتحل محله رؤية تزج بالآخر فى غيرية، لا فكاك له منها، وتلقى به إلى هوامش الحضارة، أيأن هم المسلمون لا يمكن أن يكونوا أبناء لإبراهيم، كما هم المسيحيون، بالرغم من أن التباين مع دين الإسلام قد شيد قياسًا على صورة المسيح.

وهناك طرح آخر يرى بأن تنامى ذهنية الإسلاموفوبيا فى البلاد الغربية وزرع هذا الخوف فى نفوس الغربيين هو هدف بحد ذاته، حيث استخدت لتحقيقه وسائل كثيرة ومتنوعة، إعلامية وثقافية واقتصادية وسياسية...إلخ، بل إن إقناع العرب والمسلمين بوجود هذه الظاهرة وانتشارها هو وجه آخر للهدف الأساس، أى: تصوير الإسلام على أنه العدو الذى تجب محاربته والخوف منه، فصناعة العدو حاجة أساسية وأسلوب مهم من الأساليب التى تستخدمها الدول القوية للسيطرة على الشعوب والبلاد، إنها صناعة بكل معانى الكلمة، لها مواردها الخام وآلاتها وزسواقها وصناعتها ومروجوها والمتاجرون بها، وهى صناعة أثبتت أنها رابحة وفق مقاييس المصالح الأنانية لمجموعة من الناس، استطاعوا السيطرة على الدول القوية وشعوبها

بطرق عديدة، وهم لا يهتون إلا بمصالحهم الخاصة، حتى لو أدى تحقيقها إلى إشعال حروب وفتن وقلاقل قد تؤدى إلى فناء البشرية برمتها.(١)

وهناك مفكرون غربيون يؤكدون هذا الطرح فى مقالات كتبوها، يحذرون فيها من خطورة هذا الذى يحدث فى العالم، فهذا بول آر دون يعلق على استخدام الرئيس الأمريكى لوصف "الفاشية الإسلامية"، قائلاً: "إنها الكلمة السحرية الحالية للمحافظين الجدد الذين حرضوا لحرب العراق، مروّجوها يريدون تأسيس تكافؤ أخلاقى بين ديمقراطيات الحرب العالمية الثانية من ناحية والشر الفاشستى من الناحية الأخرى، إنهم يريدون أن يُنظر إلى الموقف الأمريكى فى العراق كمعارض للشر المعاصر للفاشية الإسلامية. استعمال العبارة يدعى رهاب الإسلام "إسلاموفوبيا"، صممت لتشويه سمعة معظم العالم الإسلامى، ولعل المتابع لما يجرى اليوم فى العالم، يشعر بأن ما يسمونه بالإسلاموفوبيا ليست نتيجة لعلاقات وتفاعلات بين الغرب والإسلام وحسب، وليست نتيجة لسياسات مخططة حديثًا بهدف تحقيق المصالح الأنانية، بل هى نتاج أفكار سيطرت ومازالت تسيطر على العالم الغربى اعتمدت على نظريات ترسخت فى عمق اللاوعى الغربى، برر من خلالها الساسة أفعالهم، وبرر من خلالها المستعمرون استغلالهم واستعمارهم، وسيطروا بها على شعوبهم وعلى الشعوب المستغلة، التى استلبت وأقرت هى الأخرى بالتفوق الغربى، حتى كأنه حقيقة واقعة لا مجال لنقضها، لأنها مؤكدة علميًا وتاريخيًا وعقليًا.

ونتوقف عند ما جاء فى تقرير مؤسسة رنيميد ترست، والذى تحدث عما وصفه بالموبقات السبع التى تساهم فى تكريس مفهوم الإسلاموفوبيا، ولو أن التقرير يتحدث عن الحالة البريطانية، إلا أنها تصلح كذلك لأن تنطبق عن الحالات الغربية بشكل عام.(٢)

---

(١) صناعة العدو، رغداء محمد أديب زيدان، مقال منشور علي الموقع:

http://www.odabasham.net/show.php?sidd=9464

(٢) بالنسبة للحالة الفرنسية، يمكن مراجعة كتاب مهم للباحث الجزائري الصادق رابحن، وقد اعتمدنا عليه في دراسة أهم معالم صورة الإسلام في وسائل الإعلام الفرنسية، في كتاب "صورة الإسلام في الإعلام الغربي"، وهو كتاب الصادق هو "الإسلام في الخطاب الإعلامي".

وعمـومًا نورد أهم أسباب التـخويف من الإسلام كـما صورتها وسـائل الإعلام الأوروبى، ونختصر مجمل هذه العوامل فى النقاط التالية:

١- الخطر الذى يمكن أن يجسده العالم الإسلامى فى حالة تملك أسلحة نووية، ويبرز هذا مع باكستان، أو إيران، أو العراق.

٢- انهيار الأيديولوجية الشيوعية وتحول الصراع إلى صراع حضارات.

٣- المواجهـة التاريخية بين العـالم الإسلامى والدول الأوروبية لفـترات طويلة، والتى يصطلح عليها بالحـروب الصليبية، إضافـة إلى أنها تصاعدت فى العشـرين عامًا الأخيرة، خـاصة بعد أزمة البـترول فى السبيعـينات لتساهم فى استـفحال أحكام سيئة مسبقة عن الإعلام.

٤- ظهور تيـارات فى أوروبا تدعو لتـخصـيص فرص العمل لأبناء الـوطن وحدهم، والخوف من مـزاحمة المهاجـرين المسلمين بهدف البـحث عن فرصة العمل كـما يدعى جان مارى لوبين ئيس حزب الجبهة الوطنية فى فرنسا.

٥- انتشـار الثقافـة الإسلاميـة إلى حد أنها أصـبحت ظاهرة مميـزة لأفقر أحـياء المدن الغربية، وخـاصـة فى الضواحى حيث تقطن الأقليـات المسلمة، ويتم وصف هذه الظاهرة فى وسائل الإعلام الأوروبية، بتسلل العدو القديم من الباب الخلفى.

٦- تأييد وسائل الإعلام الغربيـة لإسرائيل، مما أدى إلى التعامل مع النظام الذى يمس القضـايا العربيـة والإسلامـية، مثـل: الكفاح الفلسطينى على أنه نضـال ذو طابع إرهابى، ولا تخـرج وسائـل الإعلام الغـربيـة عن الأحكام المشوشـة للعـديد من الأكاديمـيين الغـربيين، تلصق صـفة الإرهاب على الإسلام، ويـوجد على رأس هؤلاء المستشرق الأمريكى برنارد لويس.

٧- مـخلفات عـمليـة اختطاف عـمليـة الرهائن فى لبنان وإيران، والاغـتيـالات التى تعرض لها مواطنون غربيين فى مصر والجزائر.

٨- وأخيرًا، تجليات التفجيرات الإرهابية التى تورطت فـيها عناصر إسلامية، وخاصة بعد تاريخ ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

بدائل أمام الإسلام والغرب:

بعد استعـراضنا لأهم معالم كراهية الإسلام والمسلمـين فى القضاء الغربى، ومن أجل استـعراض بعض الاقـتراحـات، نرى أهم البدائل المقـترحـة والكفيلة بـالحد من ظاهرة، لابد أن تكون مرتبطة بالأسـباب التى تحدثنا عنها سابقًـا، وأول هذه الأسباب: الكراهيـة، ولو أن الهـدف الأسمى يبـقى فى التـأسـيس لنقد ذاتى مـن كلا الطرفـين: الإسلام والغربى، نحن والآخر، أو ما يسمى بتعبير أهل الاستشراق الشرق والغرب.

وبناء على خـلاصات رئيـسيـة توصلنا إليهـا فى دراسة لنـا حول طبـيعـة صورة الإسلام فى الذهنية الغربية، سوف نستشهد ببعض وأهم هذه الخلاصات، حيث أكدنا على أن مواجهـة الكتابات والأفلام والبرامج وكافة الرسـائل التى تسيىء إلى الإسلام والمسلمـين اليوم بحاجـة إلى عمل مـؤسسى منظم بدلاً من الجـهود الفردية الـراهنية، سواء فى مجال رصد ما ينشر أو يذاع عن الإسلام والمسلمين، أم فى مجال مواجهة ما ينشر فى مخـتلف القنوات الإعلامية الغربيـة، على اعتبار أن الجهود الفـردية تظل غير قادرة على تفـعيل آليات المواجـهة والرد والتصحـيح، ومن بين أهم الخطوات فى هذه الاستراتيجية ما يلى:

* دعم العـلاقة بين المراصد الإسـلاميـة وبين ممثلى الأقلية المـسلمة فى مخـتلف دول العالـم، بما يتيح لأفـراد هذه الأقليات الاتصـال بالمراصد وإبلاغـها بأية معـلومات يمكن الحصول عليها بهذا الشأن.
* تكثيف الاتصال بوسائل الإعلام الغربية ومراكز البحوث والجامعات فى الدول غير الإسلامية؛ لتصويب ما يصدرعنها بشأن الإسلام والمسلمين.
* فـتح أبواب الحـوار مع مـراكز التـأثيـر فى صناعـة القـرار والرأى العـام فى الدول الغربية، وكذلك مراكز البحوث والدوائر الأكاديمية ووسائل الإعلام العالمية.
* التحـرك السريع لمواجـهة المواد الإعـلامية المسيئـة للإسلام بالتنسـيق مع الهيئات والمنظمات المعنية.

* الاستعانة بخبراء العلاقات العامة والإعلان عن الأكاديميين فى الجامعات والمعاهد ومن العاملين فى المجال التطبيقى لعقد اجتماعات متخصصة لكيفية تفعيل الحملات الخاصة بالعلاقات العامة والإعلان.

* مخاطبة المؤسسات الإعلامية العربية والإسلامية فى وضع برامج ضمن خريطتها لكيفية تفعيل تصحيح صورة الإسلام فى الذهنية الغربية.

* تكثيف التواصل مع الجامعات والمعاهد والمؤسسات العلمية فى الغرب التى لها تعاطف مع الإسلام والمسلمين.

كما تعمدنا التنبيه إلى أهم هذه التوصيات، وتعلو على جميع ما سبق، وهى الاجتهاد فى ترجمة هذه التوصيات إلى الواقع، وذلك من خلال تبنى رؤى منهجية وإجرائية تقوم على إعطاء الأولوية لتوصيات معينة على باقى التوصيات فيما يتعلق بالتطبيق، فلا يعقل أن تظل الفعاليات الإسلامية، ومعها تمثيليات الأقلية المسلمة فى الدول الغربية تجتمع لدراسة أوضاع القضايا الإسلامية، ومنها قضية صور الإسلام والمسلمين ى وسائل الإعلام الغربية، ثم تنتهى هذه الاجتماعات بإصدار التوصيات، والتى قد تتكرر فى ملتقى آخر مع نفس المدعوين من أجل مناقشةنفس الموضوع، دون أن نكون قد حققنا أى تقدم فى مجال تطبيق التوصيات السابقة.

إننا لا ننكر حسن نوايا المجتمعين والمسئولين، خاصة وأن القضية لا تهم مجموعة معينة أو بلد منعزل، وإنما تتعلق بالإسلام كدين وتاريخ وحضارة، وترتبط كذلك بواقع المسلمين اليوم، وخاصة مع التحديات الحضارية التى نواجهها، ولكن أن نساهم فى تحسن صورة الإسلام والمسلمين، وهذه خطوة تمتد لأجيال وتتطلب تغييير عقليات،، ولن يتم من خلال التوفر على حسن النوايا.

نختم هذه المداخلة بشهادة من أهلها، وهى للدبلوماسى البريطانى كيم هويلز[1]،

(١) مداخلة كيم هويلز، الوزير في وزارة الخارجية البريطانية، ألقاها في ويلتون بارك خلال مؤتمر تحدي القولبة في كل من أوروبا والعالم الإسلامي: العمل معًا لأجل سياسات وشراكات بناءة الذي عقد في ٢ آيار ماليو ٢٠٠٦م.

وانطلق فيها من استطلاع أجرى فى أسبانيا، وهى بلد تمتد فيه جذور الإسلام عميقًا، وأظهر بأن ٩٠ بالمائة ن الإسبان يؤمنون بأن الدول الإسلامية هى دول "سلطوية"، و٩٦ بالمائة وصفوا الدول الإسلامية بأنها "تفتخر وتتابهى بالذكورة"، و٧٩ بالمائة وصفوها بأنها "غير متسامحة"، و٦٨ بالمائة وصفوها بأنها دول "تعتنق العنف".

وقد استنتج المحاضر بأنه علينا العمل بشكل عاجل -إن كنا نريد أن نمد جسوراً عبر هذه الفروقات، وأن نمحوا هذه الفجوة الواسعة من الجهل، مؤكداً، كما أكدنا فى هذه المداخلة من خلال الإصرار على شعار النقد الذاتى، بأنه حان الوقت لكى نكون صرحاء، وألا ندع مجالاً للمجاملات السياسية التى تعرقل حواراتنا، على اعتبار أن أورواب تحتاج أيضًا لأن تعترف بالتحديات التى تجابهها وأن تعالجها، بما فى ذلك مشاعر الكراهية ضد الإسلام، والمخاوف لدى مواطنيها من المسلمين، ولا يعنى هذا التضحية بالهويات أو التخلى عن القيم القوية، وإنما يعنى فى هذا السياق، إعادة التواصل مع الهوية الإسلامية، التى يمتد تأثيرها إلى الجاليات المسلمة ببلادنا، وأن نعمل بالشراكة معهم، استجابة للتحديات التى نواجهها. وقد تكون هذه فرصة لمسلمى أوروبا لأن ينفتحوا بمجتمعاتهم التى تبدو منغلقة وأن يندمجوا فى مسارات المجتمع الأوسع نطاقًا، ومختتما بما نختتم به هذه المداخلة. فقد حان الوقت للعمل الفعلى حول التحديث والاعتدال، ونبذ التأثيرات الثقافية أو القوى التى تبرر عدم اتخاذ إجراءات تجاه حقوق الإنسان، كما حان الوقت أيضًا لمجابهة الذين يروجون لنظرات المؤامرة، والتى يمكن أن تنطوى على خطر كبير جداً علينا جميعًا، وتوطيد أسس المبادئ العالمية للديمقراطية، والتى تسهم فى خلق مجتمعات مستقرة ومزدهرة ومنسامحة.

* * *